

المحاضرة الثانية: العمل من منظور سوسيولوجي

عند تتبع تطور المنظورات السوسيولوجية للعمل انطلاقاً من مجموعة من المعطيات التي كان لها أثر كبير في تحديد الملامح العامة لمختلف مدارس سوسيولوجيا العمل وتوجيه المسار العام لتطور مقارباتها وهندسة مدارسها وتوجهاتها النظرية الحالية، ومن أهم تلك المعطيات ذلك التفاعل الجدلي الذي كان قائماً منذ النصف الأول من القرن العشرين بين صنفين من المعرفة والأفكار ومحاولات تفهم ما كان يجري داخل أماكن العمل، وهذان الصنفان هما:

✓ **صنف أنتجته الخبرة الميدانية المباشرة لعدد من الفنيين والمهندسين والمسيرين المباشرين** لبعض المصانع والإدارات الكبرى من خلال حقبة التطور الثانية للصناعة من ناحية.

✓ **وصنف ثان من التحليلات والمقاربات أنتجها المفكرون وعلماء اجتماع** حاولوا قراءة ما يجري داخل أماكن العمل من ناحية أخرى.

لقد كان لهذين المصدرين في محاولتهما لقراءة وفهم ظواهر العمل على اختلاف إنتاجهما وغاياته دور هام في تأسيس أولى ركائز المقاربة العلمية للعمل من ناحية وتغذية ما سوف يتناسل من مدارس وتوجهات فكرية متصلة بالعمل فيما بعد من جهة أخرى.

ولد علم اجتماع الحديث من رحم تساؤل رواده ومؤسسيه الأوائل عما أصاب المجتمعات الغربية من تغيرات هيكلية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتبلورت أهم أسس هذا العلم الحديث ضمن لحظات وعي الآباء المؤسسين له ببداية زوال أسس مجتمعهم التقليدي وانبثاق آخر ارتسمت ملامحه تحت وقع تداعيات الثورتين الفرنسية والصناعية، عبر محاولات فكرية حاول من خلالها كل مفكر النظر في ذلك الواقع بأسلوب وفكر حكمتها خلفيتهما الفلسفية والاجتماعية والإيديولوجية.

وبحكم ماعرفته أشكال العمل من تطور مهم تلازم مع ما عرفته التقنية والصناعة والنظام الرأسمالي من تطور وانتشار كان العمل محط تفكير هؤلاء الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع، حيث اجتهد كل منهم- في إطار محاولات فهم تحولات عصره الاقتصادية والاجتماعية- في التعرض لظاهرة العمل بوصفها أحد أبرز ظواهر المجتمع الصناعي الحديث، ورغم اختلاف مداخل هؤلاء في دراسة ظواهر المجتمع الصناعي الغربي واختلاف زوايا نظرهم لها، فإن تفاعل هذه الاختلافات أسهم إلى حد كبير في تطوير المقاربة السوسيولوجية للعمل ولمختلف مجالاته من خلال ما نشأ بعدهما من مدارس فكرية ظلت توجهات كل واحدة منها وفيه في خطوطها العريضة لأفكار الآباء المؤسسين.

فقد أدى التحول الاجتماعي الذي أطلق عليه (بولاني، 1985) إسم التحول الكبير والذي مثله الظهور الكامل للرأسمالية والتصنيع في أوروبا إلى نشأة النظرية الاجتماعية الحديثة.

ففي حين تتناسل من فكر إميل دوركهايم **Emile Durkheim** و ماكس فيبر **Max Weber** توجه نعت في علم اجتماع العمل بأنه إصلاحي ووظيفي، وهو توجه عمل على تحسس مواطن الخلل في مجالات العمل ومحاوله استيعابها، أنتجت في المقابل أفكار كارل ماركس **Karl Marx** توجهها ثانياً نعت بأنه صراعي وثوري رفض التعامل مع واقع العمل ومؤسساته، فظل ينشد التغيير الجذري لها عبر القضاء على ما تفرزه من تناقضات.

1/ إميل دوركهايم والمنظور النظامي للعمل:

بعد حوالي قرن من حديث آدم سميث عن مفهوم تقسيم العمل نشر عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم كتابه **في تقسيم العمل الاجتماعي** سنة 1893م وقد حاول توسيع دوائر المفهوم ليستوعب التغيرات الهيكلية التي طرأت على المجتمع الأوروبي، وما نجم عنها من تحول الاقتصاد والمجتمع من الاعتماد على المؤسسة الفلاحية نحو المؤسسة الصناعية التي أفرزت تناميا غير مسبوق لنسق التخصص وتقسيمات العمل.

من خلال محاولة دوركهايم توصيف مجتمع مثالي يتحرر فيه الفرد من آثار الماضي وضغوط الحياة التقليدية في نفس الوقت الذي يحافظ فيه على روابط اجتماعية قوية مع أفراد مجتمعه من خلال تقسيم العمل وتقاسمه، خلص إلى نتيجة مفادها التماسك التام بين ظاهرة تقسيم العمل والتضامن الاجتماعي، حيث يرى بأن تاريخ الإنسانية شهد وجود نمطين من المجتمعات أحدهما يقوم على ما سماه **بالتضامن الآلي** والآخر يعتمد على التضامن العضوي، فالمجتمعات ذات التضامن الآلي -حسب رؤيته- هي تلك المجتمعات التي يخلق فيها التضامن واقعا من التشابه والتماثل بين أفرادها، حيث يشهد هؤلاء حالة انتماء قوية للمجموعة تصل حد ذوبان الأفراد واندماجهم مع الكل الاجتماعي.

وعلى العكس من ذلك تعرف مجتمعات **التضامن العضوي** نسق تقسيم عمل مهم ويؤكد هنا على أن الوظيفة الأساسية لذلك التقسيم الاجتماعي للعمل لا تنحصر في مجرد زيادة الإنتاج وتحقيق الرفاهية إنما في تحقيق أشكال التضامن المختلف عن الأول وإثبات تلك المجتمعات لوجودها، وتبعا لذلك رأى دوركهايم أنه من الضروري اختلاف المهام وتقاسمها بين أفراد المجتمع الواحد وأكد على دور التعاون والتبادل في إضعاف مخاطر الصراع والتفكك المجتمعي ونادى بذلك إلى ضرورة إعادة بناء مجتمعه لروابطه الاجتماعية التي كانت سائدة في نمطه التقليدي الذي تحطم بسبب تحولات الثورتين الفرنسية والصناعية وناشد بضرورة العمل على إحلال الاندماج والتلاحم الاجتماعي والمحافظة عليه في نمط المجتمع المعاصر الذي أساء فهم مبادئ تقسيم العمل والتضامن العضوي.

لم يهتم دوركهايم بالمعنى الضيق لتقسيم العمل لكنه عرج على مفهوم تقسيم العمل التقني وعلى شكل العمل بالسلسلة وهناك من الباحثين من رأى أنه نقد **التaylorية**، حيث نادى بعدم عزل العامل عن مجموعة العمل التي ينتمي إليها حيث يجب أن يكون العامل مندمجا في مصنعه ويكون مطلعا على كل مسار التصنيع داخله حتى يتمكن من التمتع بشكل جيد في مجموعات العمل ويعي الوظيفة والدور اللذان سيؤديهما ضمن تلك المنظومة، ونادى دوركهايم بتقسيم عمل تقني داخل المؤسسة الصناعية الذي ينمي روابط الأفراد ولا يعزلهم عن بعضهم عمالا ومسيرين، وهو ما ينتج في نظره ما أسماه بالتضامن العضوي.

اعتبر منظور دوركهايم للعمل منظورا نظاميا من منطلق اعتباره لمجال العمل بمثابة المنظومة الاجتماعية التي تهيكلها مجموعة من العناصر المتلاحمة فيما بينها عبر أدائها لجملة من الوظائف المتداخلة والمتشابكة بشكل يجعل ضمان استمرارية وجود تلك المنظومة مرهونا بأداء عناصرها لوظيفتها بالشكل المفترض.

2/ ماكس فيبر والظاهرة البيروقراطية:

حاول عالم الاجتماع الألماني **ماكس فيبر** تفسير ما يشهده عصره من تحولات جوهرية، فقام بتحديد الخصائص الأساسية للمجتمعات الصناعية من خلال اهتمامه بالتنامي المطرد لظاهرة البيروقراطية، وقد اعتبر بذلك أول مفكر وعالم درس مسألة البيروقراطية وصاغ لها نموذجاً مثالياً ظل يعتمد عليه كأداة تحليل أساسية من قبل المختصين في مختلف التخصصات الدارسة لقضايا العمل وقضايا علم اجتماع السياسي وعلم الإدارة وغيرها من التخصصات التي رغم نقدها للنموذج الفيبري إلا أنها بقيت تعتمد عليه كأساس جوهري في دراساتها وبحوثها.

يفترض النموذج البيروقراطي أن الإعتبارات الموضوعية والعقلانية غير متوفرة في أداء العمل، مما يجعل الإعتبارات الشخصية هي السائدة، ولقد انعكس ذلك على تفسير النموذج البيروقراطي لكيفية السيطرة على السلوك الإنساني داخل المنظمات، حيث يتم ذلك من خلال وجود نظام صارم للقواعد والإجراءات، ولقد عالج فيبر النظرية البيروقراطية كنظام عقلائي يتناسب مع المجتمع الصناعي في العالم الغربي ووضع بعض الخصائص الأساسية لهذا النظام.

لقد أسهمت أفكار ماكس فيبر في تطور التوجهات الأكاديمية المتناولة لقضايا العمل ومسائله، لاسيما أن سياقها التاريخي تزامن مع بروز تنظيمات كبرى كالإدارات العمومية والمصانع والأحزاب السياسية والنقابات ذات القواعد الجماهيرية العريضة، اهتم بهذه الأفكار في البداية علماء الاجتماع الأمريكيين وبعدها انتشرت في أوروبا، حيث تمكن من خلالها علماء الاجتماع في فرنسا مثل: **ميشال كروزييه Michel Crozier** و**آلان توران Alain Toraine** من تطوير مقاربات ومدارس سوسيولوجية على قدر كبير من الأهمية.

إن منظور فيبر لمسائل العمل يعد منظورا ذا توجه مجتمعي نظر للعمل في علاقته بالنظام الاجتماعي الكلي ولم يكتف بالنظر للعمل في محيط ممارسته الضيقة، بل وضعه في إطاره المجتمعي والشمولي، وذلك من خلال اهتمامه بمسألة الثقافة والقيم والمعايير المستنبطة من طرف العامل الذي اعتبر سلوكه داخل مجال العمل وخارجه سلوكا خاضعا وموجها قيما من قبل جملة ما يستنبطه من مجتمعه من نظم معايير وأنساق قيمه، وقد دعا فيبر إلى ضرورة اجتهد الباحث في تفهم دلالات ذلك الفعل الموجه ومعانيه (وهي أفكار يطورها رواد مدرسة التفاعلية الرمزية والتأويلية الرمزية فيما بعد).

3/ المنظور الماركسي:

تضمن كتاب "رأس المال" للفيلسوف وعالم الإقتصاد الألماني كارل ماركس أهم أفكاره حول مسائل الإنتاج والعمل وأنماطه وعلاقاته في ظل نظم الإنتاج التي عرفتها المجتمعات، وقد تركز جهد ماركس على نظام الإنتاج الرأسمالي الذي أراد تفسيره، حيث أقر بأن عملية الإنتاج تشهد بروز تشكّل اجتماعي بين من يملكون رأ المال من جهة ومن لا يملكون سوى قوة عملهم من جهة أخرى، فالفئة الأولى تحتكر مختلف قوى الإنتاج من مواد أولية وآلات وتجهيزات صناعية وقوى عاملة، أما الفئة الثانية وهي البروليتاريا فلا تملك شيئا سوى قوة سواعدها التي تبيعها ضمن العملية الإنتاجية للفئة الرأسمالية، وبذلك تصبح قوة العمل هي البضاعة الإنتاجية الوحيدة ذات القيمة، لذلك يعتمد أصحاب رؤوس الأموال إلى احتكار استخدامها من أجل الإستحواذ على فائض القيمة الذي يصبح ملكا لهم بعد دفع أجر اليد العاملة.

وقد رفض ماركس النظر إلى البضاعة على أساس أنها مجرد سلعة خالية من الاعتبارات الإنسانية، باعتبار أن ذلك يغيب طرفا مهما في العملية الإنتاجية وهو الشخص الذي أنتج تلك البضاعة، وتختزل البضاعة في نظر ماركس مجموعة من العلاقات بين فئة مالكة لوسائل الإنتاج وفئة لا تملك غير قوة سواعدها التي تبيعها ضمن العملية الإنتاجية للفئة الرأسمالية.

اعتبر ماركس العمل مجالا للنزاع والصراع الطبقي بين طبقة مالكة لوسائل الإنتاج وطبقة مالكة لقوة العمل، فقد اعتبر العمل مصدرا مهما من مصادر توليد القيمة الذي يتمثل استغلال ثمارها في تجديد رأس المال وفي تضخيم أرباح رأس المال في الوقت الذي لا يجني منها العامل أو قوة العمل التي يعتبر عصب العملية الإنتاجية إلا القليل وهو ما اعتبره الفكر الماركسي فضحا لبنية الاستغلال الفاحش لقوة العمل وللتناقضات الجوهرية التي يقوم عليها نظام الإنتاج الرأسمالي.